الكتابة أصبحت مهنة مستباحة والنص مازال أضعف عنصر في الدراما السورية

المنتجون يسعون للتوفير وزيادة هامش الربح فيستغنون عن الأسماء الكبيرة ويستعينون بمؤلفين مبتدئين

من مسلسل «بابا الحارة»

من مسلسل «حريم الشاويش»

وائل العدس

تعد الدراما جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس في أي مجتمع؛ ولها تأثير كبير في تشكيل بعض سلوكياتهم سلباً أو إيجاباً؛ لأنها تعكس ثقافةَ المجتمع، وقد تخلق ثقافة جديدة في المجتمع، وقد تبني قيماً وتهدم أخرى.

ولا يخفى على الكثير ما تمر به الدراما السورية من أزمة كبيرة في الشكل والمضمون، خاصة في الآونة الأخيرة، بوجود تخمة في الأعمال الدرامية التي تفتقر إلى الجودة.

جوهر الدراما

مع انتهاء كل موسم رمضاني، تشحذ الأقلام نقداً ومدحاً، لتعبر عن السخط حيناً والرضا حيناً آخر، ولعل الملاحظة التي لا تأخذ حيزاً من الاهتمام هي أن المواسم الأخيرة أظهرت شحاً في النصوص، رغم أن الواقع يغلي بآلاف القصص والحكايات.

ويشكل النص جوهر العمل الدرامي ولا يمكن للصورة المدهشة أو حرفية الفنان المتقنة وحتى الرؤية الإخراجية المبدعة إنقاذ العمل إذا افتقر للنص الجيد.

ورغم نجاح وتألق الدراما السورية وانتزاعها موقعاً متقدماً على الساحة العربية، إلا أن هناك من يرى أنها تعاني مشكلات في النصوص والافتقار إلى القصة والفكرة والتركيز على موضوعات مستوحاة من التاريخ والبيئة، لكن في المقابل هناك من يدافع عن الدراما السورية التي استطاعت تحقيق نوعية وتنوع كبيرين في الموضوعات التي عالجتها.

الدراما السورية محترمة وأغلب العاملين يجمعون على أنه قبل الحرب التي تتعرض لها سورية كان هناك بعض المشكلات التي تفاقمت حالياً، لكن أهمية الدراما تكمن في إيجاد نصوص تعرف كيف تحاكي الواقع وتتنبأ للمستقبل.

مهنة مستباحة

الأجزاء المتناسلة والاقتباسات من أعمال أجنبية، والعودة إلى التاريخ البعيد، تطرح مجدداً سؤال أزمة السيناريو والنص الذي يتكرر منذ عقود، لكنه يستمر ويتفاقم في الوقت الذي تتزاحم فيه القصص الواقعية التي تضاهي في غرائبيتها وتأثيرها وقسوتها مخيلة أكثر الكتاب جموحاً وتطرفاً، بالمعنى الدرامي.

لنعترف أن لدينا أزمة نص منذ بداية ٢٠١٠ حيث إن تراجع النص والأفكار المقدمة الآن بات أكثر وضوحاً بسبب غياب عدد كبير من الكتاب المحترفين وهجرتهم إلى الدراما العربية المشتركة، والمشكلة هي عدم وجود نصوص لها علاقة بالمرحلة والمناسبة لحالة التسويق.

> تشكيل لجنة عليا من وزارتي الثقافة والإعلام تتولى اختيار العناوين والموضوعات التي يعمل عليها الكتّاب

وأيضاً هنالك مشكلة جديدة تكمن بظهور أسماء لا علاقة لها بالبناء الدرامي ولا الحرفة كلها، حتى إن كل من هب ودب بدأ يجرب الكتابة من دون معرفة هذه الثقافة ومداها على المتلقي.

وهناك كتّاب ليسوا بكتّاب، يفهمون فقط ألف باء القصة، تقوم إحدى الشركات المنتجة بشراء النص لأنه رخيص وتتم معالجته درامياً ويعمل على النص المخرج أيضاً وكذلك النجم الممثل.

الكتابة أصبحت مهنة مستباحة لدرجة أن كثيراً من هؤلاء الكتّاب لا يملكون أي خلفية ثقافية حقيقية باستثناءات قليلة.

الكتابة الدرامية ليست بالسهلة لأنها تتضمن رؤية بعيدة المدى، وهي نبض القلب بتفكير العقل، وهذا الأمر صعب جداً.

كما أن تكرار الموضوعات في الأعمال وتحول بعضها إلى أجزاء مؤشر كبير على وجود أزمة نص، إضافة لبعض الأعمال التي تفتقر إلى مقومات النص الدرامي ولا تعدو كونها تحقيقاً أو تقريراً صحفياً.

النص مازال أضعف عنصر في الدراما السورية ويعتقد أن استمرار وجود الكاتب المنفرد وعدم تقبل الكتابة ضمن الورشة التي نجحت في دول كثيرة سيجعلان نجاح الصناعة التلفزيونية مرهوناً بوجود كاتب جيد أو عدم وجوده.

موجة التغريب

على كتّابنا أن يسلطوا الضوء على الواقع وأن يعالجوا في كتاباتهم سلبيات هذا الواقع وأن يحاولوا إبراز عواقب الاستخفاف بالقيم والأخلاق، خصوصاً في هذا الوقت الذي طغت فيه موجة التغريب التي أبعدت فئة لا بأس بها من المجتمع عن القيم ودفعتهم لتقليد النمط الغربي في الحياة كنوع من التقليد الأعمى، كما لم ترتق المعالجة التي طرحها كثير من النصوص إلى المستوى الاحترافي بل شابها الركاكة والعجز والتشتت وعدم التسلسل بخلق الأحداث.

مشكلة بعض الكتّاب تكمن بطرح فكرته من دون أن يعرف من أين يبدأ وكيف يختتم خطوطه، بل يتخبط في تقديم أحداث فارغة ومكررة بعيدة عن التخطيط والشكل العلمي.

ويمكن الحل المبدئي بإقامة ورشات عمل في مجال كتابة السيناريو بإشراف كتّاب محترفين، وإجراء مسابقات مجزية لكتاب النصوص، إضافة إلى تشكيل لجنة عليا مؤلفة من وزارة الإعلام وصناع الدراما ووزارة الثقافة تتولى اختيار العناوين والموضوعات التي يعمل عليها الكتّاب.

العملية الإنتاجية

على الجانب الآخر، سواء كان العمل يحاكي الأزمة أم أي موضوع آخر، فمجرد أن يكتب بأصول درامية مع مراعاة أدق التفاصيل من الشركة المنتجة إلى جانب قدرتها على تقديم نفسها بشكل راق، أي توافر كل العناصر الفنية اللازم وجودها بأي عمل فني ناجح، فبكل تأكيد سينجح.

لكن الإنتاج قلّ بسبب رأس المال الجبان، فالمنتج لم يعد يغامر بإنتاج مسلسل لا يضمن بيعه.

أضف إلى ذلك خوف المنتجين من السخاء على العمل من منطلق الربح والخسارة إضافة إلى تحكم رؤوس الأموال والمحطات العربية بهوية العمل أو أفكاره.

وإذا ما عدنا إلى مشكلة أفكار المسلسلات المتشابهة والمكررة وفي صياغة الحوارات، وتقليد الأفكار الناجحة، وافتقاد القصة القوية الملأى بالإثارة والتشويق، فهي لأن المنتجين يسعون للتوفير وزيادة هامش الربح ويستغنون عن الأسماء الكبيرة ليستعينوا بمؤلفين مبتدئين.

ومن أبرز التفاصيل التي تحتاجها الدراما السورية وجود أشخاص في العملية الإنتاجية يمتلكون الخبرة والرؤية الثاقبة والنفس الفني الحقيقي لصناعة الدراما، كذلك تحتاج إلى آليات صحيحة وحقيقية في تسوية العمل.

الأزمة الكبرى

الأزمة الكبرى التي تعانيها الدراما السورية هي التسويق، والحلول ليست فردية بل يجب أن تكون جماعية من خلال إيجاد معادلة أساسية في تسويق الأعمال وهي «المحطة والمنتج والمعلن».

والدعوة هنا إلى إيجاد اتحاد لشركات الإنتاج لدعم الدراما السورية والتسويق السليم لها.

وأخيراً

تخضع الدراما لعملية العرض والطلب؛ المشاهد ليس من يتحكّم في نوع وجودة الدراما؛ فمن يتحكم في هذه العملية هي المؤسسات الإعلامية والشركات الإعلانية، وما تنتجه هذه المؤسسات من أعمال درامية تفرض فرضاً على المستهلك، سواء اتفق معها أم اختلف.

«من حكايا العشق» مرآة للناس والأدب والفرح والحزن

الأيام مشغولة بالموت.. هناك من يدافعون عن البقاء.. وهناك من يمارسون البغاء علناً

سارة سلامة

«من حكايا العشق» كتاب صدر حديثاً عن اتحاد الكتاب العرب للكاتب حسن إبراهيم الناصر ضمن سلسلة القصة الثالثة الذي يحتوي على قصص وروايات تحكي عن حالة العشق والسمو والوفاء والارتباط بالأرض والمكان، كما أن للحب عنده مكاناً كبيراً فهو عاشق مولع بحبيبته، وهي قصص غير منفصلة عن الواقع، وتلامسه بشكل كبير وممتلئة بصور بليغة ومعبرة، وكثيراً ما استخدم العامية ليكون قريباً منا، وفي الحوار نراه يعيش معاناتنا اليومية، وكل ما حدث على الساحة الدولية وما تعرضنا له من حرب خانقة ممكن أن يحدثنا به على فنجان قهوة بأسلوب مشوق لا يستجدي الملل.

والواضح ارتباطه بالوطن والأرض والأم وبكل قطرة دم سالت على هذه الأرض السورية، ليس ذلك فقط إنما شغفه يحمل إيمانه بهذا البلد وحضارته وعراقته الأزلية فهو يراهن حتماً على اندحار الظلاميين ولا ينكر وجودهم ولكنه يراهن بأنهم سيمرون مثل ما مرّ غيرهم من الغزاة، فنحن من كتب التاريخ أمجادنا لا تخوفنا مجموعات كاذبة.

واستهل الكتاب بداية بإهداء إلى: «والدي الشهيد: إبراهيم موسى الناصر، وإلى أرواح الشهداء ومواكب الضوء كي لا نضل الطريق إلى رفيقة الحياة، عليا، من وحي أبجدية العشق.. لن ينتهي الزيتون ولن تنتهي حكايانا؟!».

الأدب هو الجمال

وفي تقديم الكتاب يقول الكاتب: «منذ أمد بعيد، وقولات النقاد الكبار رميات ماجدة، ومنها أن الأدب هو الناس، والأدب هو الجمال، والأدب هو الفرح وقت الفرح، والأدب هو الحزن وقت الحزن، والحق أن قصص هذه المجموعة هي مرآة لهذه القولات والرميات لأنها هي الدم النبيل الذي روى الأرض السورية في وقت المحنة، وهي دمع الأمهات السابل على الوجوه وهن يعطين الجبهات والخنادق مهج الأرواح، وهي الزغردات المتعالية مثل الطيور تحليقاً في وقت الانتصارات، قصص تمشي حيثما يمشي الناس في الدروب الظليلة وتلوب على المعاني مثلما يلوب عليها أهل المعرفة، وتعلي من أناشيد القلوب اللاهجة: موطني موطني.. مثلما تعلي الوقفات الثبت شهداء الحق».

الخروج من الخراب

تحت هذا الاسم يروي لنا الكاتب حكاية لا يستطيع فيها إغفال واقع أليم ومفروض ومرسوم عبر مخططات سياسية كتبت لنا منذ زمن بعيد، وكانت واضحة وصريحة ومنها إحداث حالة من الفوضى والتشرذم والضياع في المجتمعات، ويأتي طرح وإقحام الكاتب للوضع الراهن ضمن حوار دار مع امرأة مستعيناً بصور متعددة ما أضفى متعة كبيرة في الطرح حيث يقول: «كان متأكداً أن الأرض وطن وانتماء، وما نفع المعرفة في زمن الفوضى؟، هل تذكر «رايس» وزيرة خارجية أميركا حين أطلقت من «بيروت»، عاصمة الثقافة العربية «نظرية الفوضى الخلاقة»؟! لم يردّ على أسئلتها، همست في أذنه: لا تترك الباب مواربا، افتحه على اتساع الضوء! الريح المجنونة تهز الأشجار بعنف، تريد إنهاء زمن زراعة القمح والزيتون؟ قال بنزق: أنا متأكد، لا يمكن لريح عابرة اقتلاع أشجار السنديان! ثمة أصوات تتكسر وأقنعة تسقط؟

أي كابوس ثقيل مبهم يعصف بسنوات العمر الباقية؟ في وحشة الليل لا تخاف الوحشة، ما يخيفك هو تكاثر عدد المتوحشين، أحصي عذاباتي، ما يحدث يرجعنا «للماضي»

يا لوحشية الحاضر! في ذاكرتي صور مرعبة، تتراكم مما يحدث أو مما أسمع! الأيام مشغولة بالموت، هناك من يدافعون عن البقاء، وهناك من يمارسون البغاء علناً، يحاولون اختراق نظام الكون؟! قرأ في أوراق «لشاعر عراقي» رائحتها من رائحة خبز التنور، كتب من وحيها «وحق ملح الخبز والطيب والليمون، وحق التين والزيتون وحق الشجرة التي تاهت هنا الجهات كلها.. يمر الموت بيننا وما يمرون.. يمر الموت بيننا أيها المارقون.. لن تمروا؟ هل أنت مثلي؟ مكتوب عليك الحزن» نحن معجونون بالحزن»؟.

وداعات موجعة

حالة العشق والحب وألم الفراق جسدها الكاتب في حكاية «وداعات موجعة»، حيث يروي قصة حب عصفت في عاصمة الياسمين عند الدراسة الجامعية لينتهي بعدها كل شيء ويعود إلى قريته وأشجاره ولكن هيهات أن ينسى القلب حبيبته مهما بلغت فيه الأيام ونبلغ الراحة حتى لو دنونا مكانه، ويقول: «دمشق هذه المدينة المنتشية بالعطر «أنثى مدللة» على ضفتي بردى مع كل شمس تغسل وجهها بالياسمين. أوقعته في حب رهف. ابتسامتها شهقة فجر.. وجهها الشهي مسكون بماء الورد، في عينيها لمعة عشق متوقدة، من ضفتي ثغرها الفاتن يفيض الياسمين بالعطر.. يا ويح أصابعي الملهوفة كيف ألملم عن الشفاه كل هذا الزهر، همست بصوتها المبحوح، بماذا تفكر؟ بأغنية فيروز «يا رايح صوب مشرق.. جاي عا بالي شروقي» أربكته. لم يصدق أنه المقصود بكلامها. تحسس جسده المرتعش، شعر بأن ريقه نشف، دعك عينيه قال: يا لوجهها الطفولي المشبع بحمرة الكرز، يتكوم شعاع الشمس على شعرها المتدلي حتى خصرها الطري، لكأن الزمن توقف.. لحظة وبدأ يتنفس.. إذا لم يكن يحلم. رهف «بنت الياسمين» تختزل في جمالها الأنثوي المفرط، الأحلام والأماني. أنثى أينما اتجهت يطالعك عطرها. مضى زمن وقد تخرجا في الجامعة، وعاد يعمل في أرضه المزروعة بالزيتون والليمون والتبغ والخضرة. يعيشان الحياة بكل تفاصيلها، لم يكن في وارد أن يتركها للزمن تواجه قدراً غير متوقع. في ليلة مظلمة عصفت فيها جنون الريح، بدت أمام المرآة كشجرة نارنج عارية! وراحت تستعيد ذاكرتها، «هكذا بدأت حكايتها مع أحمد هذا الفتى الريفي. في يوم دمشقي ماطر؟! لم تجد من تقص عليه حكايتها، لهذا تجيء البحر كلما أوجعها الشوق، العتمة بدأت تزحف في الاتجاهات كلها. المطر هو الآخر لا يزال يهطل على البحر، ماء على ماء، يا لحيرتي كيف يصبح ماء السماء.. ملحاً؟ وهي غارقة في كتبها وقراءاتها، شعرت ببرودة تستقر في عظامها، تنتظر خلف عتبات محزونة، غاب الفرح عن أيامها تعشق الحزن الأمكنة، أمام المرآة خلعت أساورها، ألقتها على حافة السرير، هي التي أهداها في أول صباح.. أساور من حبق، كان يعرف أنها لن تنسى مدينتها المزدحمة بالحياة».

> دمع الأمهات السابل على الوجوه وهن يعطين الجبهات مهج الأرواح وهي الزغردات المتعالية

حسن إبراهيم الناصر

طرقات برية

وفي حكاية «طرقات برية» نرى حالة من التوحد والتماهي مع الأرض التي تشكل له كل شيء في ثنايا ذاكرته وكل ما يربطه من حنين إلى الشجر والحجر والخبز وأمه التي يستذكرها بحرقة ويحن إلى أيام عاشها ولكنها ما تزال تكبر في ذاكرة لا تقبل النسيان، ويقول: «تلك البراري الغافية على كتف البادية، لا حدائق ولا ملاعب ولا غابات، أما زلت يسكنك الصبر مئات من السنين وأنت غارق في لجة من ملح وماء، منذ ألف وأكثر.

أنت وريث الضوء تبحر في سرّ المعرفة؟ أرض بور وحرائق وذاكرة وحنين، رمان وتين وماء. ووجوه أتعبها الشوق للنهارات، كالنحل يطوف على زهر الليمون واليانسون، أشرب سلافاً والكأس دائرة.. تلاطم موج شرقي إليك بيادر وأكوام متناسقة متباعدة من الشعير والقمح، قبل نصف قرن من الزمن، أذكر تلك البيوت الطينية والعتبات العاليات، بما أن «الله اشترى من المؤمنين أنفسهم» خلق الأرض للفلاحين للعمل ليتساكنوا معها وفيها، الغربة تمزق الذاكرة.. لملمت بقايا ذاكرتي في كلمات، «وأحبك من صدق.. من حب أهلنا.. مو متل حب هل الوقت»؟! دائماً تأخذني الذاكرة إلى تلك الطرقات البرية، التي مشيت فيها حافي القدمين، أهش على غنمي بقضيب من الرمان، تركض طفولتي المشاغبة في تلك الطرقات، التي تخترق بيوتاً طينية وإسمنتية تعشقها الفقر، أستيقظ باكراً، أغسل وجهي بالماء البارد، أتناول بعض لقيمات سريعة من خبز التنور المبلل بالحليب والسكر، كي ألحق بأمي «آه وألف آه يا أمي». التي سبقتني إلى السهول البعيدة، كنا نجمع بقايا سوق القمح والشعير».